

أمين معلوف

AMIN MAALOUF

الحب عن بعد

L'AMOUR DE LOIN

مسرحية غنائية

Livret

ترجمة: نهلة بيضون

دار الفارابي – ANEP

BERNARD GRASSET
PARIS

الكتاب: الحب عن بعد

المؤلف: أمين معلوف

المتريمة: نهلة بيضون

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: * المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار (ANEP)

28 طريق أحمد واكد، دالي ابراهيم، الجزائر

الهاتف: 213 21 37 38 52/53

الفاكس: 213 21 36 72 20/53

* دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 1107 2130

الطبعة الأولى 2002

ISBN: 9961-756-36-3

Dépôt - légal: 1154-2002

جميع الحقوق محفوظة

EDITIONS ANEP

28 route Ahmed Ouaked Dely-Ibrahim, Alger-Algérie

Tél: 213 21 37 38 52/53 - Fax: 213 21 36 72 20/53

e-mail: dcpa@anep.com.dz

DAR AL FARABI

(Société Libanaise des Imprimés s.a.l.) Beyrouth - Liban.

Tel: (01)301461 - Fax: (01)307775 - P.O.Box: 3181/11

Code Postal: 1107 2130

e-mail: farabi@inco.com.lb

إلى بيتر سيلا

"مغناة الحب عن بعد" هي (أوبرا) من تلحين كايجا سارياهو، أما النص فهو لأمين معلوف. أخرجها بيتر سيلار لمهرجان سالزبورغ في آب العام 2000، بإدارة كينت ناغانو الموسيقية وديكور لجورج تسيبين. وقامت داون أوبشاو بأداء دور كليمانس، إلى جانب دواين كروفنت في دور جوفري روديل ودغمار بيكوفا في دور الحاج.

شارك في إنتاج هذا العمل الأوبرالي مهرجان سالزبورغ، بإدارة جيرار مورتيه، ومسرح الشتليه، بإدارة جان - بيير بروسمان، و «دار أوبرا سانتافي». تمّ عرض الأوبرا على المسرح في فرنسا خلال شهر تشرين الثاني/نوفمبر العام 2001، ثم عرضت في الولايات المتحدة في شهر تموز/يوليو 2002.

ويحرص مؤلف النص على التعبير عن امتنانه لأشخاص كثيرين رافقوه في هذه المغامرة الجماعية، لا

سيما جان - باتيست باربير، وإيزابيل بوديس، وبيتي
فريمان، وميشال لاغال، وكاتي نيلين، وألان باتريك
أوليفيه، إلى جانب أندريه، ورشدي، وطارق، وزياد
معلوف.

توزيع الادوار

جوفري روديل، أمير بلاد بلاي وشاعر
جوال (باريتون)، كليمانس، كونتيسة
طرابلس (السوبرانو) الحاج (ميتزو -
سوبرانو)

تدور أحداث الأوبرا في القرن الثاني عشر،
بين مقاطعة اكييتين الفرنسية، ومدينة
طرابلس، وعرض البحر.

الفصل الأول: جوفري روديل، أمير بلاد بلاي، سئم
حياة الترف التي يعيشها الشبان في مثل سنّه، وبات
يتوق لحب مختلف، بعيد، وهو يعتقد مسبقاً أنه لن
يصادفه أبداً. فرفاقه القدامى وخالّانه يلومونه على هذا
التغيير الذي أصابه بحيث أخذوا يهزأون منه. لقد كانوا
يؤكدون له باستمرار أن المرأة التي يتغنى بها لا وجود
لها. غير أن حاجاً عائداً من الشرق كان يؤكد له أن تلك

يطمع بلقائها. يصل الشاعر الجوال إلى قلعة طرابلس غائباً عن الوعي، ومحمولاً على محقّة. وفي حضرة المرأة التي تغنى بها، يستعيد وعيه شيئاً فشيئاً، فيلتقي "الحبيبان البعيان"، ويستعجلان البوح مع اقتراب ساعة المنون، فيتصارحان، ويتعانقان، ويتعاهدان على الحب والهيام...

وحين يلفظ جوفري أنفاسه في أحضان كليمانس، تتمرد الكونتيسة على المشيئة الإلهية، وتلوم نفسها على المأساة التي حصلت، وتقرر الدخول إلى الدير. وتظهر في المشهد الأخير، مستغرقة في الصلاة، ولكن كلامها مبهم، ولا يفهم المرء إن كانت تصلي راحةً لربها أم "لحبيبها البعيد".

المرأة موجودة فعلاً، وهو قد التقاها حقيقة. ومنذ تلك اللحظة ما عاد جوفري يفكر بسواها.

الفصل الثاني: إثر عودته إلى الشرق، يلتقي الحاج كونتيسة طرابلس، ويعترف لها بأن أميراً وشاعراً جوّالاً في الغرب، يتغنى بها في أغانيه، ويدعوها "حبيبته البعيدة". فتروح الكونتيسة التي شعرت للوهلة الأولى بالإهانة تحلم بذلك العاشق الغريب والبعيد، ولكنها أخذت تتساءل، أيضاً، إن كانت جديرة وتستحق مثل هذا العشق.

الفصل الثالث: في المشهد الأول، يلتقي الحاج بجوفري، بعد عودته إلى بلاد بلاي، ويسرُّ له بأن تلك السيدة باتت على علمٍ بأنه يتغنى بها، فيقرر الشاعر الجوال السفر للقاءها.

في المشهد الثاني، يبدو أن كليمانس، من جهتها، تفضل أن تظل علاقتهما بعيدة نائية، لأنها ترفض العيش في شوق الإنتظار، وتأبى لوعة العذاب.

الفصل الرابع: يبحر جوفري متشوقاً للقاء "حبيبته البعيدة"، ولكنه يشعر كذلك برهبة اللقاء الموعود. يندم على قراره المتسرع بالسفر، ويتعاطم قلقه فيغدو عليلاً، ويستفحل داؤه مع اقترابه من طرابلس التي يصل إليها وهو يحتضر...

الفصل الخامس: عندما يرسو المركب، يذهب الحاج لإبلاغ كليمانس بأن جوفري قد وصل، وهو عليل ولكنه

الفصل الأول

قصر صغير من القرون الوسطى في
جنوب - غرب فرنسا. جوفري روديل، جالساً
على كرسي، يحمل آلة موسيقية، طنبوراً أو
عوداً، منهمكاً في تلحين قصيدة، ينظم أبياتها
وأنغامها.

جوفري:

لكم تغنيت بالسعادة، وسعيداً ما كنت قط....

(يلوح برأسه رافضاً)

بالسعادة لكم تغنيت، وسعيداً ما كنت البتّة.

(يهز رأسه مستحسناً)

بالسعادة لكم تغنيت، وسعيداً ما كنت قط.

لمحت عندليباً على فنن، ينادي محبوبتي

فأمست كلماتي رجع كلمات، وأبياتي صدى أبيات

الا قلت لي أيها العندليب...

(يتوقف)

أيا عنديب، هلا قلت لي، أيا عنديب...

(يطرب لما قال)

أيا عنديب، هلا قلت لي، أيا عنديب...

جوقة الخلان:

لن يقول لك العنديب شيئاً!

جوفري:

أيها الخلان، دعوني أكمل!

جوقة الخلان:

لا، يا جوفري، لن ندعك تكمل، أصغِ إلينا.

سنقول ما أتينا لأجله،

ومن ثم ننصرف، نعدك!

ولن تلمح وجوهنا بعد اليوم...

جوفري:

لم أطلب منكم الإنصراف أيها الخلان،

إنما طلبت أن تسمحوا لي بإكمال هذه اللازمة، إنني

أبحث عن كلمة...

جوقة الخلان:

إن كنت تبحث عن كلمة،

فسوف تجد ضالتك في ما سنقوله لك

أصغِ إلينا!

(يهز جوفري كتفيه، متبرماً، ويروح يعزف

على آلة اللحن نفسه، بدون الكلمات التي

يحاكيها مكتفياً فقط بتحريك شفثيه، وكأنه

ينظمها همساً. وعندما تبدأ جوقة خلانه

بالوعظ، يتلقف كلماتهم لتلحينها، مستبقاً ما

يقولونه أحياناً لعلمه سلفاً بما يريد المنطق

السليم أن يسديه من نصح).

جوقة الخلان:

جوفري، لقد تغيرت، وفقدت بهجتك

ما عادت شفثاك تبحثان عن أعناق الزجاجات

ولا عن شفاه النساء...

جوفري:

(يقلدهم):

جوفري، لقد تغيرت،

جوفري، لقد فقدت بهجتك

مع أن حانات "أكيتين"

ما زالت تذكر من ضحكائك الرنين

واسمك يظل محفوراً بالسكين

على خشب موأدها الداكن.

جوقة الخلان:

إسخر يا جوفري، اسخر ما طاب لك!

ولكنك كنت سعيداً ليلاً نهاراً فيما مضى

أم لعلك نسيت؟

جوفري:

لعلني كنت سعيداً، أيها الخلان، أجل، لربما كنت

إنما من كل ليالي الصبا

لم تبقى ذكرى

من كل الخمرة التي احتسيت

لم يبق سوى ظمأ شديد

من كل العناقات لم يبق لي

سوى ذراعين أخرقين

جوفري ذاك الذي كان يسمع زعيقه في الحانات،

لن يسمع له صوت بعد اليوم

جوفري ذاك الذي كان كل ليلة يهوي بجسده

على أرجوحة جسد امرأة،

لن يلمحه أحد بعد اليوم...

جوقة الخلان:

ألن ترغب بعد اليوم باحتضان امرأة بين ذراعيك!

(يكف عن العزف على العود)

هل أغفلت شيئاً؟

آه، أجل...

(يعاود العزف)

جوفري روديل، تذكر،

إن النساء كنّ ينظرن إليك بخشية

والرجال بغيرة وحسد...

(يتريث)

أم أنهم قالوا العكس؟

(ويعاود الكرة)

كان الرجال ينظرون إليك بخشية

والنساء بغيرة وشهوة...

جوفري:

المرأة التي أرغب باحتضانها بعيدة، نائية
ولن تطوقها ذراعاي ما حييت.

جوقة الخلان:

(بتهم):

وأين هي تلك المرأة؟

جوفري:

(سامماً، مطرقاً):

إنها بعيدة، بعيدة، بعيدة.

جوقة الخلان:

من هي تلك المرأة؟

وما هي صفاتها؟

جوفري:

إنها جميلة، متواضعة، فاضلة، رقيقة،
شجاعة، خجولة، جلودة، ضعيفة،

أميرة بقلب فلاح، وفلاح بقلب أميرة،
وبصوتها الشجي ستنشد أغنياتي...

(وفيما يعدد جوفري الصفات التي يفترضها
في حبيبته النائية، يدخل رجل جليل، متكئاً
على عصا الحجاج، ومرتبداً معطفاً طويلاً بلا
أكمام. يتأمل بعطف الشاعر الجوال الذي لم
يلمحه بعد، مسترسلاً في مناجاته).

جوفري:

جميلة، بدون صلف الجمال
نبيلة، بدون صلف النبيل،
تقية بدون صلف التقى...

جوقة الخلان:

لا وجود لتلك المرأة، قل له أيها الحاج،
أنت الذي تجوب أرجاء المعمورة، قل له!
لا وجود لتلك المرأة!

الحاج:

(متمهلاً):

لعلها غير موجودة

ولعلها موجودة

ففي أحد الأيام، كنت وراء البحار،
ولمحت سيدة عابرة...

(يلتفت جوفري والجوقة نحوه، ويتعلقون
بشفتيه فيما يتابع حديثه بهدوء)

كان ذلك في طرابلس، قرب القلعة. كانت في طريقها
إلى الكنيسة، وإذ بكل ما عداها يتوارى... توقفت
الأحاديث، وحلقت كل العيون صوبها كفراشات بيضاء
الأجنحة لمحت ضوءاً.

كانت تمضي دون أن تنظر من حولها، تجرُّ لحظها
كما تجرُّ ذيل ثوبها.

جميلة بدون صلف الجمال، نبيلة بدون صلف النبل،
تقية بدون صلف التقى...

جوفري:

(يظل صامتاً لوهلة، ثم ينطق ويكتفي
بالقول):

ألا زدني أيها الصديق،
زدني،
زدني عنها...

الحاج:

ماذا أقول؟
وقد قلت كل شيء
كنا قرب القلعة،
وكان أحد الفصح،
واسمها...

جوفري:

لا، تمهّل، لا تبع باسمها!
تريث!
صف لي أولاً لون عينيها.

الحاج:

(وقد بوغت بالسؤال):

عيناها... عيناها...
لم أتأملها عن كتب...

جوفري:

(يسرّح النظر بعيداً):

عيناها بلون البحر حين تشرق الشمس
ويلمح المرء الظلمات تنأى عند خط الأفق...

الحاج:

(يسعى لإعادته إلى أرض الواقع):

جوفري، يا صديقي...

جوقة الخلان:

جوفري، جوفري روديل،
مركبك يبتعد عن الضفة
وزهنك يشرد...

(ولكن الشاعر الجوال لا يسمعهم، مستغرقاً
في حلمه).

جوفري:

وشعرها؟

(ومرة أخرى، يتظاهر الحاج بالاحتجاج، ولكن
جوفري يتابع الكلام، دون أن يلتقط أنفاسه).

جوفري:

(بتصميم):

شعرها فاحم وناعم لا تبصره في عتمة الليل، بل
تسمعه كحفيف الأغصان...

الحاج:

(وقد كَفَّ عن معارضته):

بدون شك...

جوفري:

ويداها، يداها الناعمتان، تجريان كالماء الرقراق
أضمهما في راحتيّ المبسوطتين، وأنحني فوقهما
كالينبوع، فأنهل كي أرتوي، وأنا مغمض العينين...

(وفيما يسترسل جوفري في مناجاته،
ويتخيل حبيبةً وهمية، ينسحب زائر الحائر
خلسةً، وكذلك يتوارى خلانه).

جوفري:

(وحيداً، يعزف أحياناً على عوده):

وشفتها ينبوع نديّ آخر،
يبتسم ويهمس بالسلوان
ويمنح نفسه للعاشق الظمآن...
وثوبها...
قل لي، يا صديقي، ماذا كانت ترتدي؟

(وإذ يلاحظ ان الحاج قد انصرف، يظل
صامتاً لوقت طويل، ينتقل من الوجد إلى
الكآبة، ثم يتابع مناجاته).

ماذا فعلت بي أيها الحاج؟
أرشدتني إلى ينبوع لن أنهل منه،
فتلك السيدة البعيدة ليست لي، ولن أعرف امرأة
سواها

ماذا فعلت بي أيها الحاج؟
جعلتني رغباً بتذوق ذلك الينبوع البعيد
ولن يتسنى لي ما حييت
أن أروي ظمأي من مائه.

الفصل الثاني

حديقة في باحة القلعة التي تقيم فيها
كونتيسات طرابلس. تقف كليمانس على
مطل، وتحاول رؤية شيء ما، بعيداً، لجهة
البحر، وحين يمرُّ الحاج على مقربة منها،
تناديه.

كليمانس:

قل لي أيها الرجل الطيب!

الحاج:

(يلتفت نحوها ببطء، وكان يحاول التخفي):

هل تنادينني أيتها الكونتيسة؟

كليمانس:

ذلك المركب الذي رسا لتوه،

هل تعلم من أين أتى؟

الحاج:

لقد كنت على متن ذلك المركب، أيتها السيدة النبيلة،

وكنت قادماً إلى القلعة
لأتمنى طول العمر للكونت شقيقك،
ولك أيضاً،
لقد أبحرنا من مرسيلىا.

كليمانس:

وقبل مرسيلىا، أيها الحاج،
من أين أبحرتم؟

الحاج:

من بلاد بلاي، في مقاطعة أكيتين، إنها بلدة صغيرة،
لا أظن أنك تعرفينها...

كليمانس:

(بدون أن تنظر إليه):

هل تستحق بلادك
أن تهجرها؟
هل جوعتك؟
هل أهانتك؟
هل طردتك؟

الحاج:

لا شيء من كل ذلك، أيتها الكونتيسة
فقد فارقت فيها أعزَّ الناس
وكان عليَّ أن أرحل فيما وراء البحار
وأرى بأم العين
ما يحتضنه الشرق من غرائب
القسطنطينية، بابل، وأنطاكية،
بحار الرمل،
أنهار الجمر،
الشجر الذي يذرف دموعاً من بخور،
الأسود في جبال الأناضول،
وقصور الجبابرة.

(صمت)

وكان واجباً عليَّ محتماً وأكيداً،
أن أزور الأرض المقدسة.

كليمانس:

(تخاطبه، إنما تخاطب كذلك السماء، وتناجي
روحها):

وانكر كذلك انني جريت وأنا حافية القدمين في درب
صخري وراء قطة.

كانت اللقطة صغيرة، ولعلها ما زالت على قيد الحياة،
وما زالت تذكرني.

او لعلها ماتت، أو نسيتني، كما نسيتني حجارة
الدروب.

وانكر كذلك طفولتي، في حين لا شيء من دنيا
طفولتي يذكرني.

البلاد التي أبصرت فيها النور تتنفس في أعماقي،
ولكنني قد متُّ بالنسبة إليها.

كم يسعدني لو تذكرني سور واحد، أو شجرة
واحدة.

الحاج:

(بعد صمت متردد وطويل):

ثمة رجل يفكر فيك.

كليمانس:

(وكانت تناجي روحها حتى كادت تنسى
وجود الحاج، فتعود ببطء إلى أرض الواقع):

كم من بشر يحملون بزيارة الشرق،

وأنا أحلم بالرحيل

في الخامسة، فارقت تولوز

ومنذ ذلك الحين، لم أشعر بالسלוوان

كل مركب يرسو يذكرني بمنفأي

كل مركب يبتعد يشعرني بأنني هُجرت.

الحاج:

ولكن طرابلس ملك لك، ولأسرتك النبيلة.

وهذا البلد أصبح الآن بلدك، وفي ثراه يرقد أسلافك.

كليمانس:

هذا البلد ملك لي؟ ربما. ولكنني لست ملكاً له.

قدماي تقفان على العشب هنا، إنما كل جوارحي

تتقافز على أعشاب بعيدة.

كل منا يحلم بما وراء البحار، ولكن ما وراء بحارك

أيها الحاج هنا،

أما ما وراء بحاري، فهناك.

ما وراء بحاري في نواحي تولوز حيث أسمع حتى

اليوم

نداءات أمي وضحكات الطفلة التي كنت.

ماذا قلت؟

الحاج:

ثمة رجل يفكر فيك أحياناً.

كليمانس:

أي رجل؟

الحاج:

شاعر جُوّال.

كليمانس:

شاعر جُوّال؟ وما اسمه؟

الحاج:

إنه يدعى جوفري روديل، وهو كذلك أمير بلاد

بلاي.

كليمانس:

(تتظاهر باللامبالاة):

جوفري... روديل... لا بد أنه لمحني فيما مضى وأنا

طفلة

الحاج:

لا، ما لمحك قط... على ما يبدو.

كليمانس:

(مضطربة):

وكيف يعرفني إذن؟

الحاج:

أخبره أحد المسافرين يوماً أنك

جميلة بدون صلف الجمال،

نبيلة بدون صلف النبيل،

تقية بدون صلف التقى،

ومنذ ذلك الحين، يفكر فيك دائماً... على ما يبدو.

كليمانس:

وينكرني في أغانيه؟

الحاج:

ما عاد يتغنى بسيدة أخرى سواك.

كليمانس:

وهل... هل يذكر إسمي في أغانيه؟

ولكن بأي حق، يا إلهي، بأي حق؟

الحاج:

لا شيء يرغبك على مبالته الحب يا كونتيسة،
إنما ليس بوسعك أن تحولي دون افتتاحه بك من
بعيد.

إنه يقول، أصلاً، في أغانيه
إنك النجمة النائية،
وإنه متيم بك بدون رجاء.

كليمانس:

وماذا يقول بعد؟

الحاج:

تخونني الذاكرة... إنما
ثمة أغنية تقول على ما أظن:
"لن أتمتع بحب"
ما لم أنعم بذلك الحب البعيد
لا أعرف أنبل وأفضل منها
في البلدان القصية أو الدانية
إنها لمن العظمة والأصالة

الحاج:

لا، إنما يعلم السامعون أنه يتحدث عنك.

كليمانس:

(مرتاعة، ثم تنور فجأة):

عني؟ وبأي حق يتحدث عني؟

الحاج:

لقد وهبك الله الحسن يا كونتيسة،
إنما لتتمتع به عيون الآخرين.

كليمانس:

وماذا يقول ذلك الشاعر الجوال؟

الحاج:

ما يقوله كل الشعراء، إنك جميلة وإنه يهواك.

كليمانس:

(مستاءة):

كليمانس:

(تواصل التظاهر باللامبالاة، ولكن ارتعاش صوتها يخونها):

وهل تستحضر أيضاً أبياتاً أخرى؟

الحاج:

"يصدق من يراني جشعاً
طامعاً بمحбовتي البعيدة
فلا فرحة تروق لي
مثل فرحتي بحبي البعيد
إنما ما اشتهيته محرّم عليّ
هكذا شاء عرابي
أن أهوى ولا يهواني الهوى..."
ويقول أموراً أخرى لا أنكرها

كليمانس:

(تحاول أن تظهر أقل تأثراً مما هي عليه):

إذا التقيت ذلك الرجل يوماً، فقلْ له... قلْ له

بحيث وددت، لأجلها،
أن أكون أسيراً، هناك، في مملكة العرب."

كليمانس:

(وقد اغرورقت عيناها بالدموع):

آه، يا إلهي، وأنا ملهمته.

الحاج:

(مسترسلاً بالنبرة نفسها):

"أصدق ربي
الذي سأرى بفضل محبوبيتي البعيدة
إنما لكل نصيب من الخير ألقاه
أعاني مشقتين من الشر لأنها نائية
آه، لو ددت أن أحج إليها
لتأمل عيناها
عصاي وعباءتي."

الحاج:

ماذا أقول له؟

كليمانس:

لا، لا شيء، لا تقل له شيئاً.

كليمانس:

لو كان يعرفني ذلك الشاعر الجوّال، هل كان ليتغنى
بي بذلك الوجد؟

هل كان ليتغنى بي لو تسنى له سبر أعماق روحي؟
جميلة بدون صلف الجمال، قيل له
جميلة؟ بل أتلفت حولي دائماً لأتيقن أن لا امرأة
تفوقني جمالاً!

نديلة بدون صلف الذبل؟

بل أطمع بأراضي الغرب والشرق معاً
وكان العناية الإلهية مدينةً لي!

تقية بدون صلف التقى؟

بل أتبختر بأبهي حلة

في طريقي إلى القداس،

ثم أركع في الكنيسة، خالية الذهن!

أيها الشاعر الجوّال، لست جميلة

سوى في مرآة كلماتك.

(تلتفت، ويفضل الحاج الإنصراف بصمت.
وبعد أن تصبح بمفردها، تدندن بضعة أبيات
من تلك التي ألغاهما الحاج على مسمعها،
ولكنها تغنيها باللغة الأوكسيتانية⁽¹⁾):

"لن أنعم بحب"

ما لم أنعم بذلك الحب البعيد

أنبل وأفضل منها لا أعرف

في البلدان القصية أو الدانية."

(يتأملها الحاج المتوارى خلف شجرة،
ويصغي إليها خلسةً. ثم يبتعد فيما تستعيد
كليمانس رباطة جأشها).

(1) تتألف اللغة الأوكسيتانية من مجموعة اللهجات المحكية في جنوب
فرنسا (الترجمة).

الفصل الثالث

المشهد الأول في قصر بلاد بلاي

جوفري:

أيها الحاج، أيها الحاج، بالله عليك، قل لي هل
رأيتها؟

الحاج:

أجل، رأيتها يا أميري الطيب!

جوفري:

أواه، أنت أوفر مني حظاً، أحسد عينيك، فلا بد أنك
تراها ثانية فيما أحدثك عنها، أصدقني القول.

الحاج:

أجل، عندما تحدثني عنها، أراها في خيالي.

الحاج:

حين يقال للمرء: "أنت مجنون"، فهذا يعني أننا لا نقصد ما نقول. وحين نعتقد أنه كذلك، نكتفي بالإشفاق عليه في الخفاء.

جوفري:

(وقد رُقُّ صوته فجأةً كما استشاط غضباً):

ومع ذلك، فأنا مجنون بها حقاً. أيها الحاج، إنني مجنون، وحق الله!

مذ حدثتني عنها، ولا أحد سواها يسكن خيالي.
في الليل، يتراءى لي ذلك الوجه الرقيق في المنام
وعينيهِ اللتين بلون البحر، يبتسم لي، فأقول في
نفسِي تلك هي وما لمحتها أبداً من ذي قبل.
ثم يبرز الفجر فاتحراً في فراشي لأنني لم أفلح
في مداعبتها أو استبقائها.
أوليس هذا هو الجنون، أيها الحاج؟
وهي هناك، بعيداً، لا تخامرنا الشكوك!

جوفري:

قل لي، كيف هي؟

الحاج:

إنها كما وصفتها لك عشرين لا بل خمسين مرةً.
جوفري، ربما... ربما يجب أن تفكر بها أقل.

جوفري:

(منفجراً):

أقل؟

الحاج:

نعم، أقل! يجب أن تفكر أقلً بتلك السيدة البعيدة،
وتعير مقاطعتك والناس الطيبين الذين يحيطون بك مزيداً
من الاهتمام. فما عدت تخرج من القصر، أو تخاطب
أحدًا سوى عودك. والجميع يظن أنك قد جننت.

جوفري:

وأنت أيضاً، يا صديقي، تظن ذلك؟

الحاج:

(وقد تأمله حتى تلك الحين بمزيج من
الانبهار والشفقة، يقرر الكلام بعد تردد
طويل):

جوفري، إنها تعلم.

(صمت ثقيل ثقل القدر الذي ينهال بوطاته
على البشر، ثم...)

جوفري:

ماذا تقول أيها الحاج؟

الحاج:

قلت: إنها تعلم.

جوفري:

ماذا تعلم؟

الحاج:

تعلم كل ما يجب أن تعلم. أنك شاعر وتتنغنى
بحسنها.

جوفري:

وكيف علمت؟

الحاج:

سألت، فاجبتُها.

جوفري:

لماذا؟ لماذا فعلت بي ذلك؟

الحاج:

لا أريد أن أكذب عليها. فطالما يعلم الجميع اسم تلك
التي تتغنى بها، فبأي حق نكتم عليها الأمر؟

جوفري:

(تحت وقع الصنمة):

إنها تعلم!

الحاج:

إن كنت تهواها، فانت مدين لها بالحقيقة. لقد فعلتُ
ما كنت ستفعله أنت لو كنت مكاني...

جوفري:

إنها تعلم!

الحاج:

كانت ستعلم عاجلاً أم آجلاً، وربما على أحد السنة
السوء!

جوفري:

(يخرج شيئاً فشيئاً من ذموله):

وماذا تعلم؟ هل بحت لها باسمي؟

الحاج:

أجل، باتت تعرف اسمك وأنت أمير وشاعر جوال.

جوفري:

هل قلت لها إنني متيم بها؟

الحاج:

وكيف أقوى على كتمان الأمر عنها؟

جوفري:

أيها الشقي! وكيف استجابت للأمر؟

الحاج:

للوهلة الأولى، استاءت.

جوفري:

استاءت؟

(يستاء هو شخصياً)

الحاج:

كان ذلك، للوهلة الأولى، حياءً سيدة نبيلة يتغنى بها
رجل بغير علمٍ منها. ولكنها، بعيد ذلك، أذعنت.

جوفري:

أذعنت؟

(يبدو عليه الاستياء كذلك)

الحاج:

أعني أنها أدركت بأن سلوكك سلوك رجل شريف،

تقريباً! وماذا تعني بقولك " تقريباً " ! أمضي نهاري
وليلي في تلحين الأغاني، كل نغمة، وكل قافية يجب أن
تجتاز معمودية النار، أخلع ثيابي وأرتديها عشرين مرة،
ثلاثين مرة، قبل أن أعثر على الكلمة الملائمة التي
تنتظر مكانها منذ الأزل، وهي معلقة في السماء. وأنت،
ألقيتها " تقريباً " ؟ " نندنتها تقريباً " ؟ أيها الشقي!
أيها البائس! كيف تخونني ثم تزعم أنك صديقي؟

الحاج:

(ممتعضاً):

ربما يجدر بي الانصراف.

جوفري:

(نادماً):

لا، إنتظر، سامحني!

فكل ما يجري قد قلب كياني رأساً على عقب.
سامحني، يا صديقي، لن أدعك تنصرف غاضباً.
إن كان ثمة رجل في هذه الدنيا يملك عليّ حقوقاً

يهيم بها إنما يجلُّ قدرها. وأظن أن ذلك قد أرضى
غرورها.

جوفري:

أرضى غرورها؟

هي الكائنة في الأعالي، فوق القمم،

أرضت غرورها؟

استاءت، أذعنت، وأرضت غرورها،

ما أكثر الإساءة إليها!

أه أيها الحاج، ما كان يجب أن تخونني!

(يهم الحاج بالاعتراض، ولكن صديقه لا يدع
له الفرصة).

جوفري:

هل ألقيت عليها قصائدي؟

الحاج:

لم تسعفني الذاكرة، فندنت لها بعضها تقريباً

جوفري:

(يكاد يصرخ غاضباً):

جوفري:

كليمانس⁽²⁾، كليمانس، ما أرحم السماء!
كليمانس، البحر الرحيم سوف ينغلق أمامي
لأعبره بلا بلل نحو البلاد التي تتنفسين فيها.

فهو أنت وحدك أيها الحاج، يا صديقي وأول من
حدثني عنها.
غير أن ما تقوله يزعزع كياني، لأنني، كلما فكرت
فيها،

سيخطر لي بأنها ترنو إلي من بعيد.
كان يسهل عليّ تلحين قصائدي لأنها لا تسمعها.
أما الآن، أما الآن...

(يفكر ملياً)

أما الآن فيجب أن تسمعها بصوتي.
أجل، بصوتي، لا بصوت غيري.
فلئن تورّد وجهها، وهي تصغي إلى أغنيتي،
أود أن أراها تتورّد.
ولئن ارتعشت، أود أن أراها ترتعش.
ولئن تنهدت، أريد أن أسمعها تنهد.
لم تعد بعيدة، وبوسعك... بوسعك أن تهمس لي
اسمها.

الحاج:

كليمانس، إسمها كليمانس.

(2) كليمانس Clémence أي الرحمة والرافة بالفرنسية (المتريجة).

يصدق من يراني جشعاً
طامعاً بمحبيبتي البعيدة
فلا فرحة تروق لي
مثل فرحتي بذلك الحب البعيد
إنما ما أشتهيه محرّم عليّ
هكذا شاء عزّابي
أن أهوى ولا يهواني الهوى...

جوقة الطرابلسيات:

ها هي تقع في شباك ذلك الشاعر الجوّال
تغني أغانيه، وتشعر بالإطراء
إنما ماذا سيثمر ذلك الحب البعيد؟
لا صحبة حلوة، ولا عناق رقيق،
لا عرس، لا أراض، لا أطفال،
ماذا سيثمر ذلك الحب البعيد؟
سوف يبعدها عن خاطبي وُدّها
أمير أنطاكية، وكونت الرّها... (يتهامسن)
ويقال، يقال كذلك ابن قيصر بيزنطية.

صوت من الجوقة:

أنتن اللاتي تلمتها

المشهد الثاني

في طرابلس، على الشاطئ،
كليمانس تنتزه. تدير ظهرها للقلعة، ووجهها
نحو البحر. تتبعها بعض النساء الطرابلسيات
على مسافة. تستعيد وتتابع بندنة أغنية
جوفري التي ذكرت مطلعها في نهاية الفصل
الثاني.

كليمانس:

"أصدق ربي
الذي سأرى بفضله محبوبيتي البعيدة
إنما لكل نصيب من الخير ألقاه
نصيبان من الشر لأنها نائية
آه، لوددت أن أحج إليها
لنتأمل عيناها
عصاي وعباتي"

كليمانس:

(كالمصعوقة):

لا، أقسم بالله، لا أتالم
قد أتالم يوماً، إنما لا أتالم بعد
بفضل مشيئته تعالى
فأغانيه أكثر من مداعبات،
لا أدري إن كنت ساعشق
الرجل كما عشقت الشاعر
لا أدري إن كنت سأفتتن بصوته
كما افتتنت بألحانه
لا، أقسم بالله، لا أتالم
لا ريب أني سأتالم لو انتظرت
ذلك الرجل ولم يأت
لكني لست في انتظاره
فإن يفكر رجلٌ بي
هناك، في موطني،
يشعرنني فجأةً بقربي من مرتع طفولتي
أنا ما وراء بحار الشاعر والشاعر ما وراء بحاري
وبين ضفتينا يرتحل عذب الكلام

ماذا جلب لكن أزواجكن؟
أمراء كانوا أم خدماً
لقد جعلوا منكن خادماً
بوصالهم تتألن
وببعادهم، تتألن.

كليمانس:

أصبت، يا ابنتي، يا صديقتي،
بوركت! بوركت! فقد قلت الحق.

جوقة الطرابلسيات:

أفلا تتألن أيتها الكونتيسة؟
ألا تتألن لبعذك عن الحبيب؟
لا تلمحين في نظرته إن كان ما زال راغباً بك؟
أفلا تتألن لأنك حتى لا تعلمين
ماذا تشبه نظرته؟
أفلا تتألن لأنك لا تغمضين عينيك
فتشعرين بذراعيه يطوقانك ويجذبانك إلى صدره؟
أفلا تتألن لأنك لن تشعري بأنفاسه على بشرتك؟

وبين حياتينا ترتحل الأنغام
لا، أقسم بالله، لا أتالم
لا، أقسم بالله، لا أنتظره
لا أنتظره.

(ستارة)

الفصل الرابع

على المركب الذي يحمل جوفري إلى
الشرق. إنها ساعة الغسق، ولكن الظلمة لم
تلف المكان بعد. لون البحر يميل إلى
الازرق الداكن، وهو ساكن الموج.

جوفري:

(مفعماً بالحياة):

أوتصدق أيها الحاج، إنها المرة الأولى التي أركب
فيها البحر
لطالما عشت قربه
أرى البحارة، والحجاج، والتجار
يبحرون ويرجعون أو لا يرجعون، غنيت معهم،
استمعت إلى حكاياتهم،
ولكنها المرة الأولى التي أركب فيها البحر.

الحاج:

(مستلقياً):

إنها رحلتي العاشرة، أو الثانية عشرة
والأولى في كل مرة
في البدء، كان يصيبني اللوار،
وينحني جسدي، وتملأ المرارة فمي،
وفي تلك اللحظات، أقسم ألا أركب
البحر ما حييت.
ثم أبعت شيئاً فشيئاً
وتجتاحني سعة السماء ورائحة الموج
ويرتحل ذهني إلى الضفة الأخرى.

جوفري:

(وقد تعاطمت نشوته):

لم أرغب من قبل في الإبحار
ولكن رحلتي سوف تنتهي في طرابلس
وفي نهايتها، هنالك كليمانس
وولادتي الثانية
ستكون مياه المعمودية عميقة وباردة
وفي نهاية الرحلة ستبدأ حياتي.

الحاج:

(مرهقاً):

إلى ذلك الحين، يجدر بك أن ترتاح قليلاً.

جوفري:

(يستمر في الحراك وينحني فوق الماء):

أيها الحاج، لماذا لون البحر أزرق؟

الحاج:

لأنه مرآة السماء.

جوفري:

والسما، لم هي زرقاء؟

الحاج:

لأنها مرآة البحر!

ولكن يجدر بك أن تستلقي مثلي يا جوفري،

فالرحلة طويلة.

(يقبل جوفري الإستلقاء على مضض. يصبح
الليل حالكاً، والبحر هائجاً. يرى جوفري حلماً
أثناء الليل فيستيقظ مذعوراً)

جوفري:

رأيتها أيها الحاج، رأيتها كما أراك!

الحاج:

(مرهقاً يغالبه النعاس):

جوفري، أنت لا تراني، ولا أنا أراك
الليل حالك وقد رأيت حلماً!

جوفري:

كانت هنا، جسدها ووجهها وثوبها الأبيض
تضيء الليل.
تغني قصيدة نظمتها لأجلها.

(تتحقق الرؤيا على المسرح فيما جوفري
يرويها للحاج. وتظهر كليمانس بثوب أبيض
تتقدم نحو البحر وتومئ إلى جوفري أن
يتبعها، ونسَمعها تنشد):

"حبك يسكن بالي
في اليقظة وفي المنام
فلكم أفضل المنام
لأنك فيه ملك لي!"

(ينشد جوفري بدوره ذلك المقطع،
مستحضراً الحلم الذي رآه)

"حبك يسكن بالي
في اليقظة وفي المنام
فلكم أفضل المنام
لأنك فيه ملك لي!"

جوفري:

لما نظرتُ إلى عينيها
ابتسمت لي، وأومات أن أتبعها
ثم رحلت، تخطو كالمملكة،
تجرُّ ثوبها وراءها كما رأيتها للمرة الأولى
في طرابلس، خلال أحد الفصح.
اقتفيت أثرها، وعلى حين غرة
لمحتها تبتعد عن المركب وتمشي
على صفحة الماء كالسيد المسيح

ولا تغرق.

التفتت، وأشرعت ذراعيها

فلم أجرؤ على التقدم نحوها

بقيت ملتصقاً بالجسر لا أقوى على اللحاق بها

وأنتحبُ خجلاً بسبب جبني

ولما صحوْتُ، كانت عيناى

مغرورقتين بالدموع، وهي قد اختفت.

الحاج:

إهدأ يا جوفري، إنه مجرد حلم كاذب

لست جباناً ولقد ركبت البحر

للقاء محبوبتك البعيدة

جوفري:

أنا خائف، أيها الحاج، أنا خائف

أنت صوت العقل ولكن الخوف لا يصغي

إلى صوت العقل

أخشى إلا ألقاها وأخشى لقاءها

أخشى أن يبتلعني البحر قبل بلوغ طرابلس

وأخشى بلوغ طرابلس

أخشى الموت، أيها الحاج، وأخشى الحياة، أوتفهمني؟

(يبزغ الفجر، ولكن البحر يزداد هياجاً.

جوفري يتشبث لئلا يقع، ممتقع اللون).

جوفري:

(يخاطب نفسه):

كان مقدراً لي أن أكون أسعد مخلوق في الأرض

قاطبةً،

ولكنني الأتعس.

(يتأرجح المركب، فيترنح جوفري ثم ينتصب

بصعوبة شديدة فتسخر جوقة الخلان).

جوقة الخلان:

لقد عرفنا محاربين أشداء

يدخلون المعمة ويعرضون أجسادهم

لنصال الأعداء

ولكنهم يرتعدون في عرض البحر

عرفنا مليكاً عظيماً

يخيف بنظرة واحدة الأمراء والفرسان

ويقود جيوشه

وكلما حملت نبأً إلى مدينة
يكون أحدهم قد سبقني
ويزعم بعضهم أن أسرار البشر
تهمسها الملائكة في مهب الريح.

(جوفري يصغي إليه بالكاد، ويواصل مناجاته،
غارقاً في الكآبة).

جوفري:

كان مقدراً لي أن أكون أسعد مخلوق في الأرض
قاطبة،

ولكنني الأتعس.

كان يجب أن أشعر بلهفة لبلوغ مدينتها طرابلس
وها إنني أتضرع للسماء لئلاً تنفخ الريح في قلوبنا
حبذا لو يطلع مارد من أعماق اليم، ويقول:
"أطلب وتمنى يا جوفري، ولك ما تشاء!"،
فلن أدري ما أتمنى.

هل أتمنى أن أرى المرأة الطاهرة أمامي
وأن تراني أمامها؟

هل أتمنى التغني بمحبوبتي البعيدة،
حين تتأملها عيناى عن كثب

عبر الجبال والوديان
ولكنه يرتعد في عرض البحر.

جوفري:

(يصغي إليهم بنزق، ثم يلتفت إلى الحاج):

لو علم رفاقنا لماذا أنا أرتعش
لما أنشدوا ما أنشدوه،
فليس البحر ما يرهبني.

(يهزّ الحاج رأسه بصمت).

جوفري:

أوتظن أنهم قالوا لها أيها الحاج؟
أوتظن أنهم أعلموها بقدمي إلى طرابلس؟
أوتظن أنهم أخطروها بانخراطي في الحملة
الصليبية؟

الحاج:

مثل تلك الأمور لا تخفى، أجل
لا أدري من قال لها، ولكنها تعلم، أجل.
أجوب البحار والممالك

الفصل الخامس

حديقة القلعة في طرابلس.
تنظر كليمانس إلى خط الأفق. وتعلن لها
جوقة الطرابلسيات النبأ الذي ترجوه
وتخشاه.

وأرمق طرف جفنيها
وتغضن شففتيها
وكل تنهيدة من تنهيداتها؟
ما كان يجدر بي الإبحار
من بعيد، الشمس تلوح كنور السماء
ومن قريب، هي سعيير الجحيم!
كان يجدر بي أن أهدهد نفسي
طويلاً بضياؤها البعيد بدلاً من القدوم للاحتراق في
وهجها!

كنت آدم، وكان البعاد فردوسي الأرضي
فلماذا أمضي نحو شجرة الخطيئة؟
وأمد يدي إلى الثمرة؟
وأدنو من النجمة الحارقة؟

(يزداد هياج البحر، وتندثر السماء بحلول
العاصفة. يترنح جوفري، فيسنده الحاج
ويساعده على الإستلقاء).

جوقة الطرابلسيات:

(بدلاً من الغناء العقلي. جلبه معتدلة التشوش
وكلمات مُبلّبة تعوم في جوف صخب المرفأ
والبحر).

أنظري أيتها الكونتيسة!
في الميناء، على المرسى، إنه المركب!
لقد رسا! لقد رسا!
إنه هنا! إنه هنا! إنه هنا!
الحجاج، الرايات، المركب!
الشاعر الجوّال!
هناك، يا كونتيسة!
الشاعر الجوّال!
في الميناء، الصليبيون، المركب!

مجنون الحب
ركب البحر
ليتأملني كما أنا
ولأتأمل هامته الرجولية

وأرمق شفثيه وهما تتحرَّكان، وعني تتحدثان.
هل أظهر الاهتمام، والرضى، والامتنان؟
أم التحفظ، والتظاهر باللامبالاة؟
أم، على العكس، التودد؟
كيف كانت لتتصرف سيدة أغانيه؟
تلك التي يدعوها
حبه البعيد؟
إذاً، لقد جاء
ذلك المجنون!

(تتعالى جلبة الجوقة ثانية، سريعاً، فتغطي
على الكلمات الأخيرة التي تلفظت بها
الكورنيسة فيما يدخل الحاج لاهثاً، وبخطوات
أقل مهابة من العادة).

الحاج:

أيها السيدة النبيلة، أحمل لك نبأ

الميناء، المركب!
إنه هنا! إنه هنا! إنه هنا!
الشاعر الجوّال!
لقد وصل! لقد وصل!

كليمانس:

(تسكت كل هذه الجلبة):

إذاً، لقد جاء
ذلك المجنون!
أبى أن يظل ذلك الطيف البعيد
تلك الحكاية الغريبة التي يتناقلها الناس،
ذلك الصوت القوي الذي يقلده البشر،
لم يكتف بكونه شاعراً ومطرباً جوّالاً
بل جاء
المجنون.

(تتواصل الجلبة قليلاً. تعيرها كليمانس
السمع، ثم تامر الجميع بالسكوت).

إذاً، لقد جاء
ذلك المجنون!

نبأ لن يسرّك.

كليمانس:

(تظن انه يهم بإعلان قدوم الشاعر الجوّال،
فتصنع شيئاً من الدعابة والمرح):

أيها الحاج، دعني أحكم بنفسي على ما يسرّني
وما لا يسرّني.

فلعلّ بشراك تحزنني

وأنباؤك المشؤومة تفرحني

ولعل كل أنباؤك لن تهمني

فماذا أردت أن تعلن لي؟

الحاج:

الامر يتعلق بجوفري، جوفري روديل!

كليمانس:

(بنبرة تريدها حازمة، ولكنها ترتعش):

الشاعر الجوّال؟

النبأ الذي تحمله أعرفه، فقد قيل لي إن مركبه قد

رسا في طرابلس: كم يوماً سيمكث هنا؟

الحاج:

ليس هذا هو بيت القصيد، يا سيدي النبيلة،

جئت أعلمك

بأنه يحتضر.

كليمانس:

يا إلهي! يا إلهي! ربّاه! ربّاه!

الحاج:

لقد اعتلّ في البحر، ولم يستعد وعيه. إنه يرحل عن

هذه الدنيا، وأنت وحدك بوسعك الحؤول دون رحيله.

كليمانس:

أين هو؟

الحاج:

سوف يصل بعد حين.

كليمانس:

(وقد هدا روعها قليلاً، وتحفظت):

طالما يقوى على الصعود إلى القلعة،
فهو ليس عليلاً كما تزعم.

الحاج:

أربعة رجال يحملونه على محفّة.

ها قد أقبلوا، لقد وصلوا.

(يصل جوفري، يحمله أربعة من رفاقه،
مغشياً، ولكنه يستعيد وعيه شيئاً فشيئاً تحت
نظرات كليمانس)

جوفري:

هذه أنت، هذه أنت، هذه أنت
كان بإمكانني معرفتك من بين كل النساء.

كليمانس:

(تنحني فوقه قليلاً):

كيف تشعر؟

جوفري؟

سعيداً... (يعتصره الألم)

سعيداً كرجلٍ تبالين بمصيره

كليمانس:

(تنحني بالحاج):

ماذا يقول الطبيب العربي؟

الحاج:

يقول إنه قد يعيش حتى الفجر.

كليمانس:

ربّاه!

جوفري:

لا تتهامسا، فلست جاهلاً بحالي.
قد يكذب الأطباء لطمانة المحتضر،
أما خفقات القلب فلا تكذب.

كليمانس:

(تحتضن يده بيدها وتريد التهوين عليه):

حين يجعل المرء يزدري الحياة
بئس الحب
حين يخون الحياة ويتحالف مع الردى.

جوفري:

(ينتصب غاضباً، ثم يتهاوى على الفور
منهكاً):

لا تلعنوا الحب، أيها الخلان
فالحب يمنحنا الأفراح
فلم لا يحق له أن يستردها؟
ليس الحب بالجحود
بل نحن أحياناً لا نستحق أن نُحَبَّ
ليس الحب الذي يخون، بل نحن
الذين نخون الحب.

كليمانس:

كم تمنيت أن أكون شاعرة لارد عليك
بكلام يضاهاى بروعته روعة كلامك.

لعل الرب لم يشأ بعد أن يسلكك
عن أولئك الذين يحيطون بك.

جوفري:

أفلا نطمعنُ برحمة السماء!

لقد تضرعت إلى ربي لينعم عليّ برويتك
قبل موتي، وها أنت أمام ناظرِي
وأخر صورة سوف أحتفظ بها
من هذه الدنيا صورة محياك
وصورة عينيك اللتين تعانقاني.
وأخر صوت سأسمعه هو صوتك
إنه يسعى لتهدئة روعي،
آخر إحساس لجسدي الفاني،
يدي العليلة ترقد بين يديك
فماذا أطلب بعد من السماء؟
لو قدر لي أن أعيش مائة عام،
فأنى لي أن أعرف غبطةً
أكثر اكتمالاً؟

جوقة الخلان:

بئس الحب

جوفري:

أنت الجمال، ولست

سوى المستنقع حيث يتملى جمالك.

كليمانس:

ثمة أمر كنت أود كتماناه،

إنما لو لم أبح به اليوم، فأخشى

ما أخشاه أن أعجز عن البوح به.

أغنياتك، كنت أنشدها في المساء

وحدي، في مخدعي،

وأبكي فرحاً.

جوفري:

لئن كانت أغنياتك جميلة فلأن عشقي طاهر

ومعشوقتي آية في الحسن والجمال،

ولكنك أكثر ضياءً وأرق مما كنت أتصور.

لو تسنى لي أن أتأملك، لنظمت

شعراً أجمل، وألحاناً تمسُّ

شغاف الروح.

ولتعظيم وجددي وهيامي.

كليمانس:

لو كنا التقينا، لعشقتك.

جوفري:

بقدر ما أعشقتك؟

كليمانس:

بقدر ما تعشقتني.

جوفري:

ولأمكنك القول: أحبك يا جوفري؟

كليمانس:

لامكنني القول: أجل، أحبك يا جوفري.

جوفري:

(يرجع رأسه ويتطلع إلى السماء):

إلهي، اغفر لي رغبتني بالعيش ثانية!

(يختلج، وتحتضنه كليمانس بين ذراعيها).

جوفري:

رباه! لو يتسنى لي البقاء هكذا
بضع لحظات، بضع لحظات فحسب
لو يتسنى لي أن أحيا قليلاً، قليلاً بعد
فحبيبتى التي كانت بعيدة

أضحت قريبة، وجسدي بين ذراعيها،
أتنشق أرق عطر
لو ينتظر الموت في الخارج
بدلاً من تعذبي، بفارغ الصبر.

الحاج:

لو كان الموت ليس وشيكاً، يا جوفري،
لما كانت حبيبتك في هذه اللحظة قريبك،
تعانقك،
ولما كان الهواء الذي تتنشقه مفعماً بعطرها،
ولما اعترفت لك: "أحبك يا جوفري!".

كليمانس:

أحبك، يا جوفري، وأتمنى
أن يكتب لك العيش!

جوفري:

لو قدّر لي الشفاء
هل تمسكين بيدي
وتقوديني إلى مخدعك؟

كليمانس:

أجل، يا جوفري، لو شاء الرب الرحيم
أن يشفيك، فسوف أمسك بيدك
وأقودك إلى مخدعي.

جوفري:

وأضطجع قريبك؟

كليمانس:

وتضطجع قربي.

جوفري:

وتلقين رأسك على كتفي؟

كليمانس:

ورأسي على كتفك.

جوفري:

ووجهك يرنو إليّ، وشفطاك قرب شفطي.

كليمانس:

وشفتاي قرب شفطيك.

(تتلمس شفاهما).

جوفري:

في هذه اللحظة، أملك كل ما أشتهي

فماذا أطلب بعد من الحياة؟

(يتهاك جسده ويضعف. لا يحرك ساكناً.

تظل كليمانس لوهلة تعانقه، وقد وضعت

رأسها على كتفه. ثم تنهض للصلاة).

كليمانس:

(ترافقها أحياناً الجوقة المحتشدة):

أرجوك، يا إلهي، أرجوك

قد تكون الآلهة القديمة ظالمة،

ولكن أنت لا تظلم يا إلهي

فأنت رؤوف رحيم، أنت حلیم.

أرجوك، يا إلهي، أرجوك (جوقة).

هذا الإنسان الفاني لا يحمل في قلبه

سوى أظهر حب

يهب حياته لغريبة نائية ويكتفي

لقاء ذلك بابتسامة

يحمد الله على منحه القليل

ولا يرجو شيئاً

فإن لم تكن معه كريماً،

يا إلهي، فمع من ستكون الكريم؟

(في هذه الأثناء، ينحني الحاج فوق جوفري

ويكتشف بأنه لا يتنفس. يومئ برأسه

لكليمانس التي تسائله بنظرتها أن كل شيء

قد انتهى. فتحنى فوق حبيبها وتداعبه كطفل

يغفو. وشيئاً فشيئاً، ينتابها الغضب والتمرد

بدلاً من الحزن، فتنهض وتوجه للسماء قبضةً

متوعدة).

كليمانس:

"لقد آمنت بك، ورجوت، يا إلهي
أن تكون أكثر رافة بذلك الإنسان الكريم
آمنت بك ورجوت يا إلهي
أنك ستظهر من الحب
ما يفوق حب ذلك العاشق المتيم
وتمنحنا لحظة،
مجرد لحظة من السعادة الحقيقية

تخلو من العذاب والسقم
والموت والوشيك
لحظة خاطفة من السعادة البسيطة
أفكان كثيراً عليك أن تفعل؟".

الجوقة محتشدة:

أصمتي يا امرأة، شغفك يضللك
أصمتي يا امرأة، أصمتي!

كليمانس:

لم شئت معاقبته؟
لأنه دعاني إلهة؟

لأنه زعم أنه صليبي، وبأنه رحل
لمحاربة الكفرة، فيما كان
قادماً لملاقاتي؟
أم لعلك تحسد
سعادة البشر الزائلة؟

الجوقة محتشدة:

أصمتي، يا امرأة، شغفك يضللك
أصمتي، يا امرأة، أصمتي!

جوقة الطرابلسيات:

أوتريدين أن تجرّي على مدينتنا
الويل والشؤم؟
أوتريدين أن يهيج البحر، ويتسلق
الموج الأسوار لابتلاع منازلنا
وإغراق أطفالنا؟

جوقة الخلان:

أوتريدين أن تجرّي علينا أجمعين
قصاص الرب؟
فيتخلى عنا في عرض البحر

من كليمانس، يعرب بدوره عن أسفه. لا
يتحاور الإثنين، بل يخوض كل منهما في
مناجاة، ويشخصان إلى السماء):

وأنا، يا رب، لماذا اخترتني
لهذه المهمة؟
من ضفة إلى ضفة، ومن بوح إلى بوح،

خلت أني أنسج الخيوط البيضاء
لثوب عروس،
وبغير علمٍ مني، نسجت كفنًا!

(يبتعد كملك مخلوع، أو يتسمر كتمثال من
الملح).

كليمانس:

لا أستحق أن أحبَّ بعد اليوم
لا أستحق أن يتغنى بي الشعراء
أو يضمني صدر رجل أو يلاطفني
غداً، بعد الماتم، سأتشح بالسواد
وألبس ثوباً من الصوف السميك
وأتوارى عن الأنظار
تحت سقف أحد الأديرة

وسط العاصفة
ويتخلى عنا في معمعة الحرب
حين ينقض الأعداء؟

الجوقة محتشدة:

أصمتي، يا امرأة، شغفك يضلُّك
أصمتي، يا امرأة، أصمتي!

كليمانس:

(تهيم على خشبة المسرح بثوبها الأبيض
الفضفاض كمركب شراعي ترنحه الريح).

ظنُّ جوفري أنه لاقاني، فلاقى الموت
أكون جمالي طعماً للموت؟
ظنُّ أنني الضياء
فكنت حارسة الظلمات!
أنى لي أن أهوى؟
أنى لي أن أكشف جسدي؟
وأفتح صدري لنظرة عشيق؟

الحاج:

(مفجوعاً بمصير صديقه، إنما أكثر تماسكاً